

من آيات الله

فى الأرض والأنفس

قال تعالى فى سورة الذاريات: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

إن المتأمل فى أحوال وشئون الكوكب الأرضى الذى نعيش عليه، يجد أنه معرض هائل لآيات الله، وعجائب صنعته.

معرض لم نتحل منه حتى اللحظة إلا القليل من بدائعه، ونحن نكشف فى كل يوم جديداً منه، ونطلع منه على جديد، ومثل هذا المعرض معرض آخر ممكنون فىنا نحن: النفس البشرية. الخفية الأسرار.

وإلى هذين المعرضين الهائلين تشير الآيتان تلك الإشارة المختصرة، التى تفتح هذين المعرضين لمن يريد أن يبصر، ولمن يريد أن يتيقن، ولمن يريد أن يملأ حياته حتى تفيض بالمتعة والمسرة، وبالعبرة الحية، وبالرصيد القيم من المعرفة الحقه.

والنصوص القرآنية مُعدةٌ للعمل فى جميع الأوساط، والبيئات والظروف، والأحوال، قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس، ولكل عقل، ولكل إدراك كل بقدر ما يتقبل منها وما يطيق.

وكلما ارتقى الإنسان فى المعرفة، واتسعت مداركه وزادت معلوماته، وكثرت تجاربه، واطلع على أسرار الكون، وأسرار النفس. . ارتقى نصيبه، وتضخم رصيده، وتنوع زاده الذى يتلقاه من نصوص القرآن.

ولقد وجد الذين سمعوا هذا القرآن أول مرة من آيات الله فى الأرض وآياته فى أنفسهم نصيبهم، وتسلموا رصيدهم وفق معارفهم، وتجاربهم، وإشراقات نفوسهم.

ووجد كذلك كل جيل أتى بعدهم نصيباً يناسب ما تفتح له من أنواع العلوم،
والمعارف، والتجارب. . ونجد نحن نصيبنا وفق ما اتسع لنا من رقعة العلم،
والمعرفة، والتجريب، وما تكشف لنا من أسرار لا تنفذ في هذا الكون الكبير،
وستجد الأجيال بعدنا نصيباً مدخراً لها من الآيات التي لم تكشف لنا بعد في
الأرض والنفس.

هذه الأرض التي نعيش عليها حافلة بالمشاهد من الأحياء التي تعمر الأرض
من النبات والحيوان، والطيور، والسمك، والزواحف، والحشرات. قال تعالى في
سورة الأنعام: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا
فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ وفي الأرض آيات ﴾ تدل على الصانع وقدرته، وحكمته،
وتدبيره، حيث هي مدحوة كالبساط لما فوقها، وفيها المسالك والفجاج للمتقلين
فيها، وهي مجزأة: فمن سهل، ومن جبل، وصلبة، ورخوة، وسبخة، وفيها
عيون متفجرة، ومعادن، ودواب منبثة مختلفة الصور والأشكال، متباينة الهيئات
والأفعال.

ويقول البيضاوي في قوله تعالى: ﴿ وفي الأرض آيات ﴾ أي فيها دلائل من
أنواع المعادن والحيوان أو وجوه دلالات من الدحو، والسكون، وارتفاع بعضها
عن الماء، واختلاف أجزائها في الكيفيات، والخواص، تدل على وجود الصانع،
وعلمه، وقدرته، وإرادته، ووحدته.

ثم انظر وتأمل في آيات الله المعروضة في الأرض. . الأقوات المذخورة في
الأرض للأحياء التي تسكنها، تسكن سطحها، أو تسبح في أجوائها أو تمخر
ماءها، أو تختبئ في مغاورها وكهوفها أو تختفي في مساربها وأجوافها.

هذه الأقوات الجاهزة المركبة والبيطة والقابلة للوجود في شتى الأشكال
والأنواع لتلبى حاجة هذه الأحياء التي لا تحصى ولا تحصى أنواع غذائها أيضاً.

هذه الأوقات الكامنة في جوفها، والسارية في مجاريها والسابحة في هوائها، والنابتة على سطحها، والقادمة إليها من الشمس، ومن عوالم أخرى، بعضها معروف وبعضها مجهول، ولكنها تتدفق وفق تدبير المشيئة المدبرة التي خلقت هذا المحضن لهذا النوع من الحياة، وجهازه بكل ما يلزم للأنواع الكثيرة التي لا تحصى.

وتنوع مشاهد هذه الأرض ومناظرها حيثما امتد الطرف، وحيثما تنقلت القدم، وعجائب هذه المشاهد لا تنفذ: من وهاد، وبطاح، ووديان، وجبال، وبحار، وبحيرات، وأنهار، وغدران، وقطع متجاورات، وجنات من أعناب، وزرع، ونخيل صنوان وغير صنوان. وكل مشهد من هذه المشاهد تتناوله يد الإبداع والتغيير الدائبة التي لا تفتر عن الإبداع والتغيير.

والخلايق التي تعمر هذه الأرض من الأحياء.. نباتاً، وحيواناً وطييراً، وسمكاً، وزواحف وحشرات، كل خليفة منها أمة، وكل فرد منها عجيبة. كل حيوان، كل طائر، كل زاحفة، كل حشرة، كل دودة، كل نبتة، لا بل كل جناح في يرقه، وكل ورقة في زهرة، وكل قصبه في ورقة.

في ذلك المعرض الإلهي العجيب الذي لا تنقضى عجائبه ولو مضى الإنسان. بل لو مضى الناس جميعاً يتأملون هكذا، ويشيرون مجرد إشارة إلى ما في الأرض من عجائب، وإلى ما تشير إليه هذه العجائب من آيات ما انتهى لهم قول ولا إشارة.

غير أنه لا يدرك هذه العجائب إلا القلب العامر باليقين ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ فلمسة اليقين هي التي تحي القلب، فيرى ويدرك، وتحى مشاهد الأرض فتنتطق للقلب بأسرارها المكنونة، وتحديثه عما ورائها من تدبير وإبداع، فقوله تعالى: ﴿ في الأرض آيات للموقنين ﴾ إشارة إلى أنه لا ينتفع بتلك الآيات الكونية، ولا يقع على مواقع الهدى منها إلا أهل اليقين الذين يطلبون العلم والمعرفة بالبحث الجاد، والنظر المتفحص.

وإذا كانت الأرض كلها عجائب وآيات، فهناك عجيبة تدب على هذه الأرض قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أن هذه العجيبة هي هذا المخلوق الإنساني، إنه عجيبة في تكوينه الجسماني، عجيبة في تكوينه الروحي، عجيبة في أسرار هذه النفس، وهو عجيبة في ظاهره وعجيبة في باطنه.

وأنه ليكفي الناس أن ينظروا في أنفسهم. فإن في أنفسهم عالماً رحيباً، وكوناً فيحياً، وأنه ليكفي أن يقيم أحد الناس بصره على مسيرته في الحياة، من وجوده نطفةً إلى أن صار رجلاً، إنه سيجد في هذا سجلاً حافلاً بالآيات الدالة على قدرة الخالق، وعلى حكمته وعلى بديع صنعه.

وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده، ومراة من خلالها هذا الوجود كله في صورة خاصة لا تتكرر أبداً على مدار الدهور، ولا نظير له بين أبناء جنه جميعاً، لا في شكله، وملامحه ولا في عقله ومداركه، ولا في روحه ومشاعره.

وكثير من عجائب الجنس البشري مكشوفة للبصر تراه العيون ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

* * *

المصادر والمراجع

- ابن كثير: (أبي الفداء إسماعيل) تفسير القرآن العظيم - ط كتاب الشعب - القاهرة.
- الأهل: (عبد العزيز سيد) من إشارات العلوم في القرآن - ط النهضة الحديثة - بيروت ١٣٩٢هـ.
- البلادي: (عاتق بن غيث) آيات الله الباهرات - ط دار مكة - مكة المكرمة ١٤١٢هـ.
- البيضاوي: (ناصر الدين عبد الله بن عمر) تفسير البيضاوي - ط استانبول ١٣٠٥هـ.
- تعليل: (عبد المنعم أحمد) آيات الإيمان بالله - ط دار القلم - الكويت ١٣٩٤هـ.
- حجازي: (محمد محمود) التفسير الواضح - ط مطبعة الاستقلال - القاهرة ١٣٩٢هـ.
- حوى: (سعيد) الأساس في التفسير - ط دار السلام - القاهرة ١٤٠٥هـ.
- الخطيب: (عبد الكريم) التفسير القرآني للقرآن - ط دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦٧هـ.
- الفخر الرازي: (محمد بن عمر) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب - ط القاهرة ١٩٣٣م.
- رجب: (عبد الجواد) مع الله نظرات في الكون والحياة - ط دار الاعتصام ١٣٩٤هـ.
- الزمخشري: (جار الله محمود بن عمر) الكشف عن حقائق التنزيل ومبين الأقاويل - ط الحلبي القاهرة ١٣٨٥هـ.

السايح: (الدكتور أحمد عبد الرحيم) المعرفة في الإسلام بين الأصالة والمعاصرة- ط دار الطباعة المحمدية - القاهرة ١٤٠٠هـ.

الشوكاني: (محمد بن علي) فتح القدير - ط مصطفى الحلبي- القاهرة.
عبد الباقي: (محمد فؤاد) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - ط كتاب الشعب - القاهرة.

عبد: (الإمام محمد) الإسلام بين العلم والمدنية- ط كتاب الهلال - القاهرة ١٩٦٠م

العدوي: (محمد أحمد) آيات الله في الآفاق - ط دار المنار - القاهرة ١٣٥٢هـ.

الغمراوي: (محمد أحمد) الإسلام في عصر العلم- ط دار الإنسان- القاهرة ١٣٩٣هـ.

الغمراوي: (محمد أحمد) في سنة الله الكونية - ط لجنة التأليف ١٣٥٥هـ.
فرهود: (الدكتور محمد السعدى) في رحاب البيان القرآنى - ط دار الطباعة المحمدية ١٣٩٨هـ.

الفندى: (محمد جمال الدين) القرآن والعلم - ط دار المعرفة القاهرة .
قطب: (الشهيد سيد) في ظلال القرآن - ط دار الشروق - القاهرة.
قنبي: (الدكتور حامد صادق) الكون والإنسان في التصور الإسلامى - ط مكتبة الفلاح - الكويت ١٤٠٠هـ.

مجموعة من العلماء: (لجنة التفسير) المنتخب من التفسير - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة.

مجمع البحوث الإسلامية: (لجنة التفسير) التفسير الوسيط - ط مجمع البحوث الإسلامية الأزهر.

المراغى: (أحمد مصطفى) تفسير المراغى - ط الحلبي القاهرة ١٣٨٢هـ.

موريسون: (كريس) العلم يدعو للإيمان - ط النهضة المصرية ١٩٧٧م.

نوفل: (عبد الرزاق) الله والعلم الحديث - ط الناشر العرب ١٩٧١م.